

العربية صوت القرآن وصورته

بقلم د. محمد حسان الطيّان

ليست اللغة مجرد رموز أو مواصفات فنية، بل هي أسلوب تفكير ونمط بناء وتثقيف للشخصية الإنسانية، ويقدر ما تكون اللغة دقيقة يكون الفكر دقيقاً والرأي صائباً، فالإنسان عندما يفكر لا يستطيع ذلك إلا إذا وجد مخرجاً لكل فكرة بعبارة يقولها أو يكتبها، وما لم تتحول الفكرة إلى لغة فإنها تموت، ومن هنا فإن زيادة الثروة اللغوية يؤدي إلى زيادة الثروة الفكرية، ومن هنا أيضاً كان الخلل في اللغة خللاً في التفكير كما قال الفيلسوف زكي نجيب محمود: "إذا دبّ خلل في اللغة دبّ خلل في التفكير" ذلك أن العلاقة بين اللغة والفكر علاقة جدلية أزلية فلا فكر دون لغة ولا لغة دون فكر .

هذا وإن ضعف اللغة أو قوتها معيار تقاس به ثقافة الأمم وحياتها، فالجتمتع الذي تقوى لغته ترقى ثقافته وحياته وفكره. "وكم عز أقوام بعز لغات".

ولغتنا تواجه اليوم حرباً ضروساً على مختلف الجبهات، سرا وجهاً..ظاهراً وباطناً..داخلاً وخارجاً.. وتعهد هذه الحرب تقارير رسمية تصدرها اليونسكو مؤذنة بزوال هذه اللغة وأقول نجمها في هذا القرن الذي سيطيح بنصف لغات الأرض (أي نحو ثلاثة آلاف لغة بينها العربية).

ولا ريب أن راية العربية راية منصوره، وأن هذه التقارير ستعود بخيبة الأمل على من صاغها، لأن المولى جل وعلا قد تكفل بحفظ هذه اللغة، أو ليست لغة ذكره الذي قال فيه: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}** الحجر 9.

ولكن هذا النصر الإلهي مرهون بالجهاد في سبيله، وبذل الغالي والنفيس من أجله، إنه مرهون بشروطه التي كتبها ربنا سبحانه بقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}** محمد 7.

والعربية شعيرة من شعائر الله جل في علاه، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، وهي إلى هذا الرباط المقدس المتين الذي يشد بعض أبنائها إلى بعض، ويصل مشرق هذه الأمة بمغربها، وحاضرها بماضيها ومستقبلها، وهي هوية الأمة.. ووعاء فكرها.. ووسيلة تواصلها.. وأداة المعرفة فيها.

واستهدافها يعطل نمو تفكير الأمة، ويلغي عقلها، ويطمس شخصيتها، ويعبث بثقافتها، ويقطع أوصالها، ويجفف ينابيعها، ويحث جذورها ويتركها في مهب الريح، ولاسيما أنها لغة العقيدة والقيم والثقافة والحضارة والعلم والتعليم والعبادة.

وليست العربية لغة إقليمية تخص بلداً معيناً أو شعباً مخصصاً، بل هي لغة الأمة كل الأمة، ولست أعني الأمة العربية فحسب بل الأمة الإسلامية أجمع لأنها لغة القرآن الكريم.

ومن هنا كان لزاماً على كل عربي صادق في ولاءه، بل على كل مسلم ملتزم بإيمانه، أن يرفع هذه اللغة حق الرعاية، وأن يحفظها ويعنى بها حق الحفظ والعناية، يقول الإمام الزبيدي: "ولم تنزل الأئمة من الصحابة الواشدين ومن تلاهم من التابعين يحضون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، فيها أنزل الله كتابه المهيم على سائر كتبه، وبها بلغ رسوله عليه السلام وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه."

ومن تنكّب عن ذلك ففي عروبه شك، وفي إسلامه نقص، كما يصرح أستاذنا الدكتور مازن المبارك حيث يقول: "وليس مخلصاً للإسلام ولا واعياً في خدمة كتاب الله من لم يدعه حُبّه وإخلاصه ووعيه إلى العناية باللغة العربية، إن العربية صوت القرآن وصورته، ولا يطعن فيها أو يفصلها عنه إلا شعوي".